الفصل الرابع
تقويل النصوص التراثية

الفصل الرابع

تقويل النصوص التراثية

مجمع الأمثال(*) دراسة في منهجه وطائفة من أمثاله

تعريف المثل وأهميته :

قد تختلف الآراء وتتشعب في حد المثل أو تعريفه، وذلك لأن الأمثال أسلوب أدبي ذو خصائص متعددة، وهي ذات أعداد هائلة تستند معظمها إلى قاعدة شعبية عريضة، كما أنّ تعدد أساليبها وصياغاتها يزيد الطين بلة، ومن الصعوبة على الباحث حصر هذا العدد الهائل المتباين في محتواه وأسلوبه ضمن تعريف جامع مانع، فهي تأبى التحديد الجامد، ولهذا لا يعدم الباحث أن يجد أكثر من تعريف وضعه اللغويون والأدباء كل حسب ثقافته واطلاعه، والأمثال كما هو معروف أقوال محكية سائرة يقصد منها تشبيه أحوال الذين حكيت فيهم بأحوال الذين قيلت فيهم.

ولابد لنا أن نقف على الأصل الاشتقاقي لكلمة (مثل) قبل التعرض لأهم التعاريف التي قيلت فيه، يقول ابن منظور: يقال مثل ومثل وشبه وشبه بمعنى واحد، والمثل والمثيل: كالمثل والجمع أمثال وهما يتماثلان، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعله مثله، قال الجوهري: ومثل الشيء أيضاً صفته، ويقال: تمثل فلان ضرب مثلا: وتمثل بالشيء ضربه مثلا: والمثل: ما جعل مثالا أي مقداراً لغيره يحذى عليه [1] ويرى أبو الحسين احمد بن فارس أن المثل "يدل على مناظرة الشيء للشيء. وهذا مثل هذا أي نظيره، والمثل والمثال في معنى واحد. وربما قالوا مثيل كشبيه والمثل المضروب مأخوذ من هذا، لأنه يذكر مورى به عن مثله في المعنى"[2] فالأصل السامي العام لهذه الكلمة في العربية: مثل وفي العبرية (Masal) وفي الآرامية (Matla) وفي الحبشية (Mesel) وفي الأكادية (Mesal) ويتضمن حسب اشتقاقها معنى المماثلة، والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير [3] ويرى البعض إن الكلمة من العبرية ففيها كلمة (مثل) تدل على هذا المعنى أو أوسع منه، فهم يطلقونها على الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات

(*) نُشر البحث في مجلة المورد عام 1984 وأعد نشره هنا حفاظاً على ما كتبت آنذاك من الضياع.

(1) لسان العرب: ج3 / مادة مثل.

(2) معجم مقاييس اللغة: ج5 / مادة مثل.

(3) ينظر: الأمثال العربية القديمة: 21.

المغزى وعلى الأساطير [1]، ويرى رودلف زلهايم أن المثل قد وجد لدى العرب قبل أن يعرف بهذا الاسم بزمن طويل، "وللحاجة إلى التجريد- تلك الحاجة التي توجد لدى الشعوب البدائية". سمى قدامى الساميين (المثل) باسمه تبعاً لسماته الجوهرية أصلاً وهي سمات المقارنة التصويرية: ولا يفهم من اشتقاق كلمة (المثل) شيء أكثر من (التمثل) معناه تشبيه شيء بشيء [2] وبهذا الحديث المقتضب نكون قد أوضحنا المعنى الاشتقاقي لكلمة (مثل) التي تتردد كثيراً في كتب اللغة والأدب.

ولو حاولنا أن نستقصي كل تعريفات المثل لوجدناها كثيرة يصعب حصرها ومن أجل ذلك حاولت أن استشهد ببعضها على سبيل التمثيل لا الحصر، ومن الذين اهتموا بالأمثال (أبو هلال العسكري) الذي يؤكد أهمية المثل وصياغته قائلاً: "لما عرفت الأمثال تتعرف في أكثر وجوه الكلام وتتدخل في جل أساليب القول أخرجوها في أوقاتها من الألفاظ ليخف استعمالها ويسهل تناولها فهي: أجل الكلام وأنبله وأشرفه". وأفضله لقلة ألفاظها وكثرة معانيها ويسير مؤنتها على المتكلم مع كثير عنايتها وجسيم عائديتها ومن عجائبها أنها مع إعجازها تعمل عمل الأطناب[3] ويرى ابن عبد ربه إن الأمثال "هي وشيء الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني، والتي تخيرتها العرب وقدمتها العجم ونطق بها (في) كل زمان وعلى كل لسان فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة لم يسر شيء مسيرها ولاعم عمومتها حتى قيل: أسير من مثل [4] أما ابن الأثير فقد وجد أن الأمثال أشبه بالرموز والإشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحا ولأجل ذلك صارت أوجز الكلام، وقد قيل في حد المثل: أنه القول الوحيد المرسل ليعمل عليه وحيث بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلال بمعرفتها [5] ويتصدى له ابن أبي الحديد مقوماً وناقداً لهذا التعريف حيث يقول: قال المصنف حد المثل (كذا) وهو باطل بقوله تعالى: ﴿**أَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ فإنه قول وجيز أرسل ليعمل عليه وليس بمثل وأيضاً فإن أراد بقوله ليعمل عليه أي ليعمل بموجب ما فيه من الاقتضاء والطلب فهذا باطل بأكثر الأمثال نحو قولهم هو افعل من كذا، وإن أراد بقوله ليعمل عليه أن يستعمل فيه الموضوع اللائق فكل بيت شعر من أشعار الجاهلية والمحدثين قول وجيز مرسل يستعمل في موضع يليق به وذلك يقتضي أن يكون الشعر كله أمثالاً والصحيح أن يقال: المثل يطلق على نوعين احدهما ما قصد به المبالغة بلفظ افعل [6]، ونلاحظ إن الميداني يتفق مع المبرد في تعريفه للمثل بقوله: "المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل

---

(1) فجر الإسلام: 60.
(2) الأمثال العربية القديمة: 22.
(3) جمهرة الأمثال: 3.
(4) العقد الفريد: 63/3.
(5) المثل السائر: 63.
(6) الفلك الدائر: 53.

فيه التشبيه [1] ولقد اهتم الأدباء المحدثون بالأمثال ودراستها ومحاولة وضع تعريف لها، ومن أولئك الدكتور شوقي ضيف حيث يقول: "الأمثال عبارات تضرب في حوادث مشبهة للحوادث الأصلية التي جاء بها [2] ويرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن المثل هو صحة العبارة التي تتصف بالشيوع والإيجاز وحدة المعنى وصحته. أو هو العبارة الموجزة الأدبية التي تدل على عقل واع وتأمل بعيد وصنعة ظاهرة في تنميق العبارة وتنسيقها [3]، ويعتقد عمر كحالة أن المثل قول سائر يمتاز بشهرته وإيجازه ورقة معناه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة ولأفكار الشعب على وجه الخصوص [4]، ويلخص احمد الاسكندري معنى المثل بقوله: "إن المثل قول محكي سائر يقصد منه تشبيه حال الذي حكي فيه كحال الذي مثل لأجله"[5]، ومن خلال هذه التعاريف التي قيلت حول الأمثال نستطيع أن نستشف مدى اهتمام الأدباء بظاهرة الأمثال قديماً وحديثاً بوصفها أنموذجاً أدبياً له خصائصه، ونرى أنهم يلتقون في كونها قولاً موجزاً يراد به التشبيه ويحمل بين جوانحه روح الحكمة والتجربة الإنسانية.

ولابد لنا بعد هذا الاستعراض الموجز أن نسأل عن اهمية المثل بوصفه عنصراً من عناصر الأدب المصنف ضمن فن النثر، إذن ما أهمية المثل؟ وما هي الدوافع لتأليفه والاهتمام به؟ نلاحظ إن الامثال تصور حياة الامة العربية بشتى جوانبها فهي أصدق تعبير عن اخلاق الامة وتقاليدها وعاداتها وعقليتها وحضارتها لأنها في اعتقادي مرآة لما يحدث في رحم هذه الأمة من تفاعلات اجتماعية وذهنية، وتشير إلى تأثر الحضارة العربية وتلاقحها بالحضارات الاخرى أو بالعكس، والأمثال ظاهرة اجتماعية أدبية في الوقت نفسه، تظهر عند أكثر الأمم حتى تلك التي لم تعرف الكتابة فيها بشكل واسع، وهي تجسد المعاني عند الاستشهاد بها في طوايا الكلام ولا يغيب عن الذهن أن الله تعالى قد ضرب الأمثال في كتابه العزيز دليل على أهميتها وقيمتها.

ولا يعدم الباحث أن يجد الكثير من الأدباء والباحثين يؤكدون أهمية المثل ومن هؤلاء جرجي زيدان الذي يعدها من آداب العرب العامة لأنها تجري على ألسنتهم مجرى الشعر وهي عظات بالغة من ثمار الاختيار الطويل والعقل الراجح[6] فمن أمثال الأمة نستطيع أن نتفهم المستوى الذي وصلت إليه من حيث الرقي ونستطيع أن نعرف كثيراً من أخلاقها وعاداتها، فالأمثال إذا معين لا ينضب لمن يريد دراسة

(1) مجمع الامثال: 9 ينظر الكامل للمبرد: 181.
(2) الفن ومذاهبه: 21.
(3) الامثال في النثر العربي القديم: 9.
(4) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام: 172.
(5) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه: 13.
(6) تاريخ آداب اللغة العربية: 52/1.

المجتمع أو اللغة أو العادات الشعبية عند أمة من الأمم [1] وبهذا نكتفي بالحديث عن أهمية الأمثال حيث يمكن للقارئ أن يلمس ذلك من خلال دراستنا لمجموعة من الأمثال العربية القديمة في الصفحات القادمة.

حياة المؤلف:

تتفق أكثر المصادر والمراجع في المعلومات التي تناولت حياة هذا العالم الجليل، ونراها تتحدث عنه باقتضاب مما يجعل من العسير علينا معرفة جزئيات حياته لنتفهم شخصيته من خلال ظروف حياته. وعلى كل حال. فإن المعلومات التي حصلت عليها تفي بالغرض، لأن البحث الذي نحن بصدده هو كتابه (مجمع الأمثال)، وفي ظني أن الكتابة عن حياة المؤلف بكل تفصيلاتها أمر يخرج بنا إلى متاهات نحن في غنى عنها، لذلك سأتناول حياته بإيجاز مفيد ثم ألج خضم البحث في كتابه الشهير، المؤلف هو "أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري الأديب كان أديباً فاضلاً عارفاً باللغة اختص بصحبة أبي الحسن الواحدي صاحب التفسير ثم قرأ على غيره، واتقن فن العربية خصوصاً اللغة وألّف كتاب الأمثال المنسوب إليه ولم يعلم مثله في بابه، وكتاب السامي في الأسامي وهو جيد في بابه وقد سمع الحديث ورواه [2].

ولقد كانت له يد باسطة في أنواع الأدب وصنف التصانيف الجليلة مثل (الهادي للشادي)[3]، ويقال إن الزمخشري الخوارزمي لما نظر في الكتاب المذكور أنكر عليه تسميته بهذا الاسم وقال له: الشادي [4] ما اخذ طرفاً من العلم وهذا الكتاب لا يليق إلا بمن كان منتهياً وله كتب أخرى منها: (نزهة الطرف في علم الصرف) وكتاب (شرح المفضليات) وكتاب (منية الراضي في مسائل الكافي)[5] ولقب المؤلف بالميداني نسبة إلى محلة محلة من محال نيسابور كان يسكنها [6]، وهو ميدان زياد بن عبد الرحمن في محلة نيسابور [7]، وقد اشتهر الميداني بأدبه وسعة علمه، وعرف في البلدان بتصانيفه الحسان المشهورة، وقرأ الأصول واحكمها ثم اخذ بالتصنيف فأحسن كل الإحسان فيما جمعه وصنفه وأربى على من تقدم بالترتيب والتحقيق واستدرك على بعض من زل من قبله من المصنفين وأصلح مواضع الغلط وكتب عن الإمام أبي الحسن علي بن المجاشعي النحوي القادم على نيسابور [8]، ويتمم هذه الترجمة ما أثر عن الحسن البيهقي في

---

(1) مقدمة كتاب الامثال للسدوسي: 5.
(2) وفيات الأعيان: 130/1.
(3) انباه الرواة: 124/1.
(4) نزهة الالباء: 390.
(5) أنباه الرواة: 124/1.
(6) معدم الأدباء: 45/5.
(7) وفيات الاعيان: 130/1.
(8) أنباه الرواة: 142/1.

كتابه وشاح الدمية قال عنه: الإمام أستاذنا صدر الأفاضل أبو الفضل بن احمد الميداني صدر الأدباء وقدوة الفضلاء وقد صاحب الفضل أيام فقد زاده وفني عتادة وذهبت عدته وبطلت أهميته فقوم سناء العلوم بعدما غيرتها الأيام بصروفها ووضع أنامل الأفاضل على طواتها وحروفها ولم يخلق الله فاضلاً في عهده إلا وهو في مائدة آدابه ضيف، وله بين بابه وداره شتاء وصيف وما علا من عام الحج البحر الخضم واستنزف الدر ظلم وكان هذا الإمام يأكل من كسب يده [1] ويذكر أن ابنه سعيدٌ كان أيضاً فاضلاً ديناً وعالماً جليلاً وله كتاب (الأسماء في الأسماء).

ومن أطرف ما ذكر عن المؤلف قصته مع الزمخشري التي تدل على ذكائه ونباهته، وقد وردت تلك القصة في معظم المراجع التي تحدثت عنه، وهي في اعتقادي نوع من المبالغة غير المحببة، وملخص القصة أن الميداني لما صنف كتابه مجمع الأمثال وقف عليه الزمخشري فحسده فأخذ القلم وزاد (نوناً) فصار (النميداني) ومعناه بالفارسية الذي لا يعرف شيئاً، فلما وقف الميداني على ذلك أخذ بعض تصانيف الزمخشري وإبدال الميم نوناً فصار (الزنخرشي معناه باع زوجه في الفارسية)[2]، ويبدو إن معنى زنخشري لم تكن دقيقة حيث نجد طاش كبرى زاده يعترض على ما ذكر بقوله: قلت المعنى المذكور أعني بائع زوجه ليس يحصل بتبديل الميم نونا فقط بل يجب مع ذلك تقديم الشين على الخاء يقال "زنش خري" وأما بدون هذا التقديم فمعناه أمر قبيح شنيع وهو تغوط على ذقنه[3] ويقال إنه لما وقع وقع الزمخشري على ذلك كتب إلى الميداني واعتذر إليه من ذلك، فكتب إليه إذا رجعت رجعنا وقبلنا عذرك، وهذه فكاهة لا تليق بالمشايخ[4] وذكر محمد أبو المعالي بن الحسن الخواري في معرض حديثه عن الميداني وعلمه قال: "وسمعت غير مرة من كتاب أصحابه يقولون لو كان للذكاء والشهامة والفضل صورة لكان الميداني تلك الصورة" ومن تأمل كلامه واقتضى أثره علم صدق دعواهم، وكان ممن قرأ عليه وتخرج به الإمام أبو جعفر احمد بن علي المقري البيهقي وابنه سعيد وكان إماماً بعده[5] ومن خلال ترجمة حياته ظهر إن الميداني لم يكن لغوياً فقط بل كان أديباً وشاعراً أيضاً، وقال عبد الغافر بن إسماعيل ومن أشعاره:

تنفس صبح الشيب في ليل عارضي فقلت عساه يكتفي بعذاري
فلما فشا عاتبته فأجابني ألا هل يرى صبح بغير نهار

وله أيضاً:

---

(1) السامي بالاسامي: ج.
(2) أنباه الرواة: 123/1، معدم الأدباء: 47/5، الفلاكة المفلوكون: 99، بغية الوعاة: 356/1.
(3) مفتاح السعادة: 124/1.
(4) نزهة الالباء: 390.
(5) معجم الأدباء: 47/5- 48.

شـــفة لماهـــا زاد فـــي آلامـــي فـي رشـف ريقتهـا شـفاء سـقامى
قـد ضـمنا جـنح الـدجى وللثمنـا صـــوت كقطـــك أرؤس الأقـــلام

هذا على وجه التقريب معظم ما ذكر عن المؤلف في المصادر والمراجع التي وقعت بين يدي وهي أخبار قليلة بالقياس لمكانة هذا العالم الفذ، ولو تأملنا أبياته الأخيرة لوجدنا أن تشبيهه نابع من بيئة علم وادب فهو يصور صوت "اللثم" بـ "قط الاقلام" وهذا التشبيه على الرغم من عدم شاعريته يدل على تأثره بأدوات الكتابة وحبه لها إذ لم نسمع مثل هذا التشبيه الغريب الطريف من الشعراء الآخرين لأن مثل هذا التشبيه لا يمكن أن يبرز في ذهن شاعر بعيد عن عالم الكتابة وأدواتها.

وتكاد تتفق اكثر المصادر والمراجع على تاريخ وفاته فقد توفاه الله في رمضان سنة ثمان عشرة وخمسمائة، ليلة القدر ودفن بمقبرة الميدان بعد أن ترك لنا اعظم التصانيف والتي منها كتابه القيم "مجمع الامثال" موضوع البحث.

منهجه :

لقد عني العرب بجمع الامثال لأنها جملة ما احتاجوا إليه في تحقيق الفاظ اللغة ولأنها من جملة الأساليب النثرية التي صاغها العرب بطبقاتهم ومع ملتقى القرن الخامس بالسادس الهجري جمعت الامثال العربية القديمة في كتابين مشهورين هما "مجمع الامثال" للميداني (والمستقصي في امثال العرب) للزمخشري وقد أصبح هذان الكتابان مرجعين كبيرين لهذا النوع من الأدب وبقي كذلك حتى يومنا هذا، فكان المتأخرون من جماع الأمثال يقومون باختصارها أو تنقيحها ولكنهم لم يستطيعوا أن يزيدوا عليها.

وقبل أن نتحدث عن أهمية هذا الكتاب – مجمع الأمثال- لابد من الإشارة إلى اختلاف اسمه بين مصدر وآخر ولكنها تدور جميعها حول الأمثال ويبدو أن قدرا معيناً من التغيير قد دخل على اسم الكتاب بسبب النسخ كما اعتقد، فنجده في (بغية الوعاة) و(الفلاكة والمفلوكون) و(وفيات الأعيان) باسم (الأمثال)، أما في (كشف الظنون) فنراه باسم مجمع الأمثال وهو ما اشتهر به، ولكن (جرجي زيدان) في (تاريخ آداب اللغة العربية) قد جمع بين الاسمين من دون الإشارة إلى ما ورد لدى القفطي باسم (جامع الأمثال).

ولبيان أهمية هذا الكتاب يُحكى بأن الزمخشري بعدما ألف المستقصي في الأمثال وقع بين يديه مجمع الأمثال فأطال النظر فيه، وأعجبه جداً، ويقال إنه ندم على تأليفه المستقصي لكونه دون (مجمع الأمثال) في حسن التأليف والوضع وبساطة العبارة وكثرة الفوائد وغزارة المادة الأدبية فيه وقد فضل اللاحقون من العلماء والادباء بعد ذلك كما يبدو كتاب الميداني على كتاب قرينه الزمخشري، فقد طبع مجمع الامثال اكثر من مرة طبع حروف وطبع حجر، حيث طبع مراراً في مصر وفي بيروت سنة 1312هـ وطبعة بيروت أتقنها لأنها عبارة عن نظم الامثال في أرجوزة عليها شروح للشيخ إبراهيم الأحدب المتوفي في بيروت 1308هـ وقد سماه (فرائد اللالي في مجمع الامثال) صدر في مجلدين ضخمين يليهما فهارس ابجدية في مئة صفحة، مما جعل فوائده مضاعفة وله مختصرات غير شائعة [1]، في حين إن كتاب الزمخشري لم يصل إلى يد الناس في طبعة من طبعاته.

ولنترك المؤلف يحدثنا عن منهجه في تأليف كتابه بعدها نقوم نحن باستقراء هذا المنهج وتحليله ثم توضيح ما لم يذكره، ويبدو إنه ألف هذا الكتاب بناء على رغبة السيد العالم ضياء الدولة صفي الملوك أبو □لي محمد بن ارسلان، يقول المؤلف: اشار بجمع كتاب في الأمثال مبرز على ما له من الأمثال مشتمل على غثها وسمينها محتو على جاهليها وإسلاميها، فعدت إلى وطني ركض المنزع شمرة الغالي مشمراً عن ساق جدي في امتثال أمره العالي فطالعت من كتب الأئمة الإعلام

(1) تاريخ آداب اللغة العربية: 45/3.

ما امتد في تقصيه نفس الأيام مثل كتاب أبي عبيدة وأبي عبيد والاصمعي وأبي زيد وأبي عمرو وأبي فيد، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً ونخلت ما فيها فصلا فصلاً وبابا بابا مفتشاً عن ضوالها زوايا البقاع، مشذبا عن ابنها بصارمي القاطع علماً من أني أحت به الدينار في كف ناقد، وأجلو منه البدر لطرف غير راقد يزيده بالنظر فيه رونقاً وبهاء ويكسبه بالاقبال عليه سناً وسناه، ونقلت ما في كتاب حمزة بن الحسن إلى هذا الكتاب إلا ما ذكره من خرزات الرقى وخرافات الاعراب والامثال المزدوجة لاندماجها في تضاعيف الابواب وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم في أوائلها ليسهل طريق الطلب في تناولها وذكرت في كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغلق ومن القصص والاسباب ما يوضح الغرض ويسيغ الشرق مما جمعه عبيد بن شرية وعطاء بن مصعب والشرقي القطامي وغيرهم، فإذا قلت المفضل مطلقا فهو ابن سلمة وإذا ذكرت الاخر ذكرت اسم أبيه، وافتح كل باب بما في كتاب أبي عبيد وغيرهم ثم أعقبه بما على أفعل من ذلك الباب ثم امثال المولدين حتى آتي على الابواب الثمانية والعشرين على هذا النسق ولا اعد حرفي التعريف ولا ألف الوصل والقطع والأمر والاستفهام ولا ألف المخبر عن نفسه ولا ما ليس في أصل الكلمة حاجزاً إلا أن يكون قبل هذه الحروف ما يلازم المثل.

وجعلت الباب التاسع والعشرين في أسماء أيام العرب دون الوقائع فإن فيها كتباً جمة البدائع. وجعلت الباب الثلاثين في نبذ من كلام النبي ﷺ وكلام خلفائه الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين مما ينخرط في سلك المواعظ والحكم والآداب، وسميت الكتاب (مجمع الأمثال) لاحتوائه على عظيم ما ورد منها وهو ستة آلاف مثل ونيف والله اعلم بما بقي منها فإن أنفاس الناس لا يأتي عليها الحصر ولا تنفد حتى ينفد العصر [1].

إن ما ذكره المؤلف آنفاً يبدو وكأنه منهج واضح وسليم، ولكني وجدت بعض الأمور التي يمكننا أن نؤاخذ المؤلف عليها أو نلفت النظر إليها بسبب عدم الاهتمام بها مع أهميتها وهي:

1- لم ينظم أسماء الذين اخذ عنهم في رفد كتابه بحسب التسلسل التاريخي لوفاتهم فهو يذكر (أبو عبيدة) و(أبو عبيد) قبل (عبيد بن شرية)، في حين يعد هذا هو الراوية القريب من الأول إن لم يكن الأول أعني عبيد بن شرية الجرهمي ت 70هـ ألف كتاباً في الأمثال ويقول ابن النديم أنه رأى الكتاب وهو نحو خمسين ورقة وعبيد هذا كان من جملة الرواة النسابين [2] وكان من الأولى أن يرتبهم كالآتي:
   أ- عبيد بن شرية الجرهمي (70هـ).
   ب- ابو عمرو بن العلاء (145هـ).

---

(1) مجمع الأمثال: 1/7- 8.
(2) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: 23 ينظر الأمثال في النثر العربي القديم: 33.

ت- المفضل الضبي (170هـ).
ث- أبو فيد السدوسي (198هـ).
ج- ابو عبيدة (211هـ)
ح- أبو زيد الأنصاري (215هـ).
خ- الأصمعي (216هـ).
د- أبو عبد القاسم بن سلام (232هـ).

ويبدو إن غرام المؤلف بالسجع جعله يخرج على المنهج العام في ترتيب أسماء الأعلام الذين استقى منهم.

2- ذكر الميداني في مقدمته أيضاً اسم عالمين آخرين هما: الشرقي بن القطامي وعطاء بن مصعب، وإن هذين العالمين من رواة الأخبار التاريخية كما اعتقد، ولم يذكر الميداني أي كتاب لواحد منهما لا في هذا الموضع ولا في أي موضع آخر من الكتاب، واغلب الظن إنه لم يذكرهم في المقدمة إلا ليشير إلى إن بعض حكايات الأمثال التي ذكرها جماع الأمثال المتأخرين ترجع في روايتها إلى كتاب قدماء معروفين في رواية الأمثال غير إن كتبهم لم يبق منها شيء في زمن المؤلف، يقول الدكتور إحسان عباس في حديثه عن الأخير أما عطاء بن مصعب فلم تجد أحداً تصدى لذكره غير الميداني إذا لم يكن في الاسم تصحيف أو تحريف، فإنه يبدو أنه كان من تلك الطبقة المبكرة من الرواة التي اهتمت برواية ما تتصل به بعض الأمثال من أخبار وأساطير.

3- لم يكن الميداني الرائد في جمع الأمثال كما نعرف، وهو قد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه حيث قال بأنه تصفح أكثر من خمسين كتاباً ولكنه للأسف لم يذكر اسماء أو بعض أسماء تلك الكتب مع اعتقادي بأنه قد بذل جهداً موفقاً في جمع الامثال بعد أن كانت مبعثرة بين كتب الامثال الأخرى والاخبار والنوادر والحكايات الشعبية وادخلها ضمن تصنيف جميل سهل التناول حتى أصبح كتابه المصدر المهم والأول في معرفة الأمثال حتى القرن السادس لكونه عاش جزءاً منه ولم يشر المؤلف أيضاً إلى أسلوب استقائه من تلك المصادر وهل أضاف شيئاً مأخوذاً من شفاه الناس أم إنه أكتفى بهذه المصادر التي نخلها بابا باباً؟

ولو حاولنا أن نختبر المؤلف في دقة ذكر العدد الذي أورده في المقدمة والبالغ ستة آلاف ونيف لوجدنا أن عدد الأمثال التي عالجها الميداني، مرتبة حسب الأبواب الثمانية والعشرين التي تساوي عدد الحروف الأبجدية كالآتي:

(3668) مثلاً و (1065) مثلاً على وزن افعل أضف إلى ذلك (905) من الأمثال المولدة التي ذكرها المؤلف عقب الأمثال التي على وزن (افعل من) في كل باب، وبذلك يصبح مجموع الأمثال الموجودة في الأبواب كلها هو: 5638 مثلاً وإذا احتسبنا بعد ذلك (217) يوماً من أيام العرب ذكرها الميداني في الباب التاسع

والعشرين، ثم نحسب (228) مثلاً تنسب إلى الرسول ﷺ وخلفائه رضي الله عنهم فإننا نصل إلى أكثر من ستة آلاف مثل وهو ما عبر عنه الميداني بـ (ستة آلاف ونيف) وهو بذلك قد التزم بمنهج علمي رياضي واضح ولا اعرف كيف فات الدكتور عبد المجيد عابدين العدد الدقيق لامثال المولدين في مجمع الامثال ما يقرب من ألفين مستنداً في ذلك- كما يبدو- إلى إحصاء الباحث (غويطاين) في حين إن عددها المضبوط كما قلنا هو (905) امثال فقط.

ويرى جرجي زيدان أن مجمع الأمثال يضم بين جنبيه نخبة ما احتوته كتب المتقدمين، جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتاباً في الأمثال ورتبه على حروف المعجم بعد أن أضاف إليه أمثال المولدين، هو اجمع كتاب في الأمثال العربية وفيه شروح لطيفة وقد طبع مراراً بمصر والشام، أما كتب الامثال الاصلية التي اخذ عنها الميداني والزمخشري فالباقي منها قليل أهمها كتاب الأمثال لأبي عبيد بن سلام وامثال العرب للضبي وجمهرة أمثال العرب للعسكري [1].

ولقد خلف لنا العرب كثيراً من الأمثال منها الأمثال القديمة وهي ما خلفها العرب في العصر الجاهلي، ومنها ما ظهر في العصر الإسلامي البدوي يطلق المثل على سجيته وعلى فطرته وسليقته فينتشر بعد فترة من الزمن في أنحاء الجزيرة العربية، وذلك لما فيه من بساطة وحس صادق وتعبير عن روح العصر، وجاء في المقدمة التي وضعها الأستاذ □بد الفتاح محمد الحلو لكتاب الثعالبي قوله "وكثيراً ما يحز بك أمر ويهبط عليك سرور أو تدهش لحادث فتجد نفسك لا شعوريا تنطق بالمثل وكأنما تذكرت طبيعتك الإنسانية"[2].

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب في مقدمته لكتاب أبي فيد السدوسي إن جمع الأمثال إنما مر بثلاث مراحل وهي كالآتي:

1- مرحلة الإخباريين والقصاص وكان غرضها الحكاية.
2- مرحلة اللغويين وكان غرضها جمع الأمثال وتصنيفها في موسوعات وظهر من صنفوا في هذه المرحلة:
   أ- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ت (395هـ).
   ب- مجمع الامثال للميداني ت (518هـ).
   ت- المستقصي لامثال العرب للزمخشري ت (538هـ).
   ث- مجمع الامثال للبيهقي ت (565هـ) [3].

أما كتاب جمهرة الامثال للعسكري فقد رتبه على حروف المعجم كما يذكر في مقدمته، وأورد فيه ما يقرب من ألف وستين مثلاً، كلها من الامثال القديمة ولم يتعرض لامثال المولدين كما فعل الميداني، ولا يهمنا في هذه المرحلة غير كتاب

---

(1) تاريخ آداب اللغة العربية: 52/1.
(2) التمثيل والمحاضرة: 23.
(3) ينظر كتاب الامثال العربية القديمة: 5- 9.

مجمع الأمثال للميداني موضوع البحث، ولهذا الكتاب أهمية جليلة وذلك لاحتوائه على عدد كبير جداً من الأمثال، وقد تعترض الباحث جملة صعوبات عند دراسته لهذه الأمثال، ولعل أبرزها عدم تحديد الزمن الذي قيل فيه المثل، ومن الذي قاله أو رواه، وهذه الصعوبة لا نجدها في كتاب الميداني حسب بل في معظم كتب الامثال، فمن الصعب أن نميز هذه الامثال جاهليها من إسلاميها إلا في القليل النادر، يقول الاستاذ احمد أمين في هذا الصدد: وقد عاق عن الاستفادة من الأمثال العربية اختلاط الامثال الجاهلية بامثال الإسلام اختلاطاً كبيراً حتى ليصعب التفريق بينها، وهذه أول خطوة يجب التحقق منها قبل الاستدلال بالامثال على الحياة العقلية[1] ونستطيع أن نضع بعض الدلائل العامة التي يمكننا بوساطتها أن نحدد مصدر المثل أو زمنه وأهم هذه الدلائل هي:

1- وجود بعض الأمثال التي قيلت في حوادث تاريخية مهمة ذكرها يدل على زمن المثل من خلال الحادثة أو الموقعة التي قيل من أجلها المثل.
2- توجد بعض المفاهيم الجاهلية سواء أكانت اجتماعية أم فكرية أم غيرها تنعكس في طائفة من الأمثال، نستطيع من خلالها الاستدلال على تحديد زمنها مثل: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً الذي استشهد به الرسول ﷺ فيما بعد كما يقال.
3- تتميز بعض الأمثال بذكر اسم القائل أو الرواية أو القصة التي قيل من أجلها المثل، وذلك يجعلنا نتأكد من ضبط المثل وصحته وتحديد زمنه أن لم تكن القصة أو الشخصية المذكورة خرافية أو اسطورية كما سنرى فيما بعد.
4- وجود ما يعبر عن البيئة والطبيعة التي قيل المثل فيها من حيوان أو نبات أو أطعمة أو مظاهر حضارية مادية أو دينية أو غير ذلك.

ولكن ستبقى المشكلة قائمة في اعتقادي لأن هذه الدلالات ليست مقياساً مضبوطاً لحصر جميع الأمثال التي قيلت، ومن جهة أخرى فإن الأمثال قد رتبت في معظم كتب الأمثال ترتيباً هجائياً أي ترتيب الأمثال بحسب العصور مثلا، ولا بحسب تطور المجتمع العربي آنذاك، وهذا ما افقدها كثيراً من قيمتها العلمية في تصوير حياة الأمة، يقول احمد أمين في هذا المجال: "لم نر فيما نعلم أحداً رتبها كل حسب أصولها الاجتماعية كأن يجمع الأمثال التي تتعلق بالغنى والفقر وبالعمر وأطواره بالزواج والأسرة وبالعمل والتجارة وبالحظ وما إليه وبالأصدقاء والجيران وبالمرأة وأخلاقها وبالصحة والمرض إلى نحو ذلك [2].

طريقة تناوله للامثال:

(1) فجر الإسلام: 61.
(2) فجر الإسلام: 62.

إن طبيعة جمع الأمثال وشرحها تستدعي جهداً وثقافة عامة من المؤلف والباحث الذي يحاول دراستها لأنها كثيرة وتلتصق بعادات وتصورات وثقافات وعلاقات الناس بشتى طبقاتهم المتباينة على هذا الأساس يكون من الصعب إبداء الرأي فيها من دون تمحيص وإدراك للجو العام الذي قيل المثل في أحضانه، يقول ابن الأثير "وسبيل المتصدي لهذا الفن أن يسلك ما سلكه وليعلم إن الحاجة إليها شديدة، إن العرب لم تضع الامثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها فصار المثل المضروب لأمر من الامور عندهم كالعلامة يعرف بها الشيء وليس في كلامهم اوجز منها ولا اشد اختصارا [1]، ولو حاولنا أن نقارن بين من نقل المثل عن الآخرين لوجدنا أن الاختلاف واضح بين الناقل الاول والناقل الثاني لاسباب تتعلق بفهم الجامع للمثل فهو يغير في قصته ولو كلمات بالرغم من أن هذا ليس من شأنه، ولكننا نؤكد أن التغيير الحاصل في قصص الامثال يعود إلى الرواة والجامعين ودليلي على ذلك ما قاله ابن الأثير بخصوص فهم الامثال وكيف يروى قصة المثل، ثم نلاحظ أن بعض الاختلاف قد وقع عند رواية الميداني للمثل نفسه، يقول ابن الاثير: إن ما اذكره لك لتكون من معرفته على يقين فأقول قد جاء عن العرب من جملة امثالهم "إنْ يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر" وهو مثل يضرب للامر الظاهر المشهور، الأصل فيه كما (قال المفضل بن محمد- أنه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة اربع عشرة من الشهر فقالت طائفة تطلع الشمس والقمر يرى وقالت طائفة يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس فتراضوا برجل جعلوه حكماً (رواية مجمع الامثال: فقال رجل منهم) أن قومي يبغون علي، فقال الحكم (رواية الميداني: فقال العدل) إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر فذهب مثلاً.

ومن المعلوم أن قول القائل "أن يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر" إذا اخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به والاسباب التي قيلت من أجلها لا يعطي المعنى ما قد اعطاه المثل، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب عرفت ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المدونة لما فهم من قول القائل "أن يبغ عليك قومك لا يبغي عليك القمر" ما ذكرناه من المعنى المقصود بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد لأن البغي هو الظلم والقمر ليس من شأنه أن يظلم احدا فكان يصير معنى المثل: إن كان يظلمك قومك فلا يظلمك القمر وهذا الكلام مختل المعنى ليس يستقيم[2]. ومن خلال النص الذي أوردناه لابن الأثير نلاحظ أن الاختلاف واضح في رواية قصة المثل من راو إلى آخر، هذا يعني تغير الفاظ القصة زيادة أو نقصاً أو مرادفاً مع الحفاظ على المعنى بالقياس إلى أصل وضعها، ويؤكد ابن الاثير في كلامه الذي ذكرناه على فهم المثل قبل الشروع بدراسته لأن المثل المجرد ربما لا

(1) المثل السائر: 30/1.
(2) المثل السائر: 62- 63، ينظر مجمع الامثال: 30/21.

يعطينا الصورة الواضحة الدقيقة أو المغزى الذي وضع من أجله، وهذا المنهج يعد سليماً ومنطقياً ودقيقاً.

ولو طبقنا هذا المنهج على ما ورد في كتاب الميداني لوجدنا ما يلي:

1. إن المؤلف يقوم بعض الاحيان بتقويم شرح الأمثال فنراه يقول مثل هذا المثل: (إن الموصين بنو سهوان) هذا مثل تخبط في تفسيره كثير من الناس والصواب ما اثبته بعد أن احكي ما قالوا، قال بعضهم: إنما يحتاج إلى الوصية من يسهو ويغفل فأما انت فغير محتاج إليها لأنك لا تسهو، وقال بعضهم: يريد بقوله بنو سلوان جميع الناس لأن كلهم يسهو والأصوب في معناه أن يقال: أن الذين يوصون بالشيء يستوفي عليهم السهو حتى كأنه موكل بهم ويدل على صحة هذا المعنى ما انشده ابن الاعرابي من قول الراجز:

انشد من خواره عليان مضبورة الكاهن كالبنيان
ألقت طلا بملتقى الحومان أكثر ما طافت به يومان
لم يلهها عن همها قيدان ولا الموصون من الرعيان

يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به والسهوان السهو ويجوز أن يكون صفة أي بنو رجل سهوان وهو ادم عليه السلام حين عهد إليه فسها ونسى، يقال رجل سهوان وساه أي إن الذين يوصون لابد أن يسهو لأنهم بنو ادم عليه السلام [1] ومن خلال ما ذكره الميداني في شرح المثل السابق يمكننا أن نستشف أن شروح المثل ليست مستندة إلى قصة مضبوطة ومروية بدقة حيث يمكن الاعتماد عليها، إلا لا يجوز لمثل هذا المثل أن يروي من دون قصة على الرغم من أنه غير واضح، وهل من المعقول ألا تكتنفه قصة قيل من اجلها؟ أين القصة؟ أن كل هذه الأسئلة لا جواب عليها فالمفروض من المؤلف أن يذكر لنا القصة على الأقل ولا نقول بذكر اسم قائله في أكثر تقدير لنتأكد نحن من ذلك.

2. إن الميداني في مجمل كتابه لا يذكر قائل المثل أو روايته إلا في القليل النادر، وهذا أمر قد يكون في اعتقادي عائد إلى غياب قائل المثل لأن المثل كما هو معروف خلاصة خبرة مجتمع ما، وهو أشبه بالحكاية الشعبية لكن الذي أشير إليه هو أن بعض الأمثال التي أصلها أبيات من الشعر لشاعر قد يكون معروفاً لدى ادباء ذلك الزمن ولكنه يتركه من دون توثيق، فلو اخذنا هذا المثل: (إن البغاث بارضنا يستنسر)[2] لوجدنا إنه في الأصل شطر من بيت شعر، والمفروض أن يذكر اسم الشاعر حتى ولو كان معروفاً بين ابناء عصره او المناسبة التي قيل من أجلها

(1) مجمع الامثال: 1/11- 12.
(2) م. ن: 1/12.

هل هي مدح؟ أم هجاء لقومه؟ لأن الشطر يستوعب المعنيين، ولكن الميداني لم يذكر سوى بضعة اسطر شرح فيها المثل كالآتي "البغاث ضرب من الطير وفيه ثلاث لغات الفتح والضم والكسر والجمع بغاث الطير، قالوا طير دون الرخمة واستنسر صار كالنسر في القوة عند الصيد بعد أن كان من ضعاف الطير: يضرب للضعيف يصير قوياً وللذليل يعز بعد الذل، ولهذا من حقنا أن نلحظ على المؤلف الذي ادعى في مقدمته أنه نخل كتب الأمثال وأخذ ما رآه جيداً، وعليه لابد من التأكد من القائل والقصة على أقل تقدير.- ولكننا في بعض الأحيان نرى المؤلف يورد المثل مشفوعاً بالقصة والقائل عند شرحه، كما هو موجود في المثل القائل: (أتتك بحائن رجلاه) كان المفضل يخبر بقائل هذا المثل فيقول إنه الحرث بن جبلة الغساني قاله للحرث بن عيف العبدي وكان ابن العيف قد هجاه فلما غزا الحرث بن جبلة المنذر بن ماء السماء كان ابن العيف أسيراً فأُتي به إلى الحرث بن جبلة فعندها قال (أتتك بحائن رجلاه) يعني مسيره مع المنذر إليه ثم أمر الحرث سيافه الدلامص فضربه ضربة دقت منكبة ثم برأ منها وبه خبل، قيل أول من قاله عبيد بن الأبرص حين عرض للنعمان بن منذر في يوم بؤسه وكان قصدة لمدحه ولم يعرف إنه يوم بؤسه فلما انتهى إليه قال له النعمان هلا كان هذا غيرك قال البلايا على الحوايا فذهبت كلمتاه مثلاً [1] وبهذا يكون المؤلف قد استوفى شروط البحث العلمي بالرغم من اختلاف الرواية حيث ذكر إنه استند في ذلك إلى المفضل.

3. لقد كنا نأمل من هذا الاديب واللغوي الجليل أن يقوم بدراسة الامثال دراسة لغوية وتاريخية، لاسيما وإنه يملك ثقافة ادبية ولغوية واسعة وكذلك معرفة في اللغة الفارسية، ولم نجد في كتابه الا نتفا من هذا النوع مثل (أول ما طلع ضب ذنبه) قال أبو الهيثم يقال ذلك للرجل الذي يصنع الخير ولم يكن من صنعه. منهم من يرفع (أول) ويرفع (ذنبه) على معنى (أول) شيء اطلعه ذنبه ومنهم ينصب (أول) وينصب (ذنبه) على أن يجعل (أول) صفة يريد ظرفاً على معنى في (أول ما طلع ضب ذنبه)[2] وفعل مثل ذلك في المثال القائل: (استأصل الله عرقاته قال أبو عمرو يقال استأصل الله عَرْقات فلان وهي أصله وقال المنذري هذه كلمة تكلمت بها العرب على وجوه، قالوا استأصل الله عَرْقاته وعَرَقاته وعَرِقاته وعِرقاته قلت لم يزيدا على ما حكيت وأرى إنها مأخوذة من العرقة وهي الطمرة تنسج فتدار حول الفسطاط فتكون كالأصل له ويجمع

(1) مجمع الامثال: 25/1.
(2) مجمع الامثال: 65/1- 66.

على عرقات وكذلك أصل الحائط يقال له العرق فأما سائر الوجوه فلا أرى لها ذكراً في كتب اللغة إلا ما قاله الليث فإنه قال العرقاة من الشجر ارومة الاوسط ومنه تتشعب العروق وهو على تقدير فعلاة وقال ابن فارس والازهري العرب تقول في الدعاء على الإنسان استأصل الله عرقاته ينصبون التاء لأنهم يجعلونها واحدة مؤنثة مثل سعلاة وقال آخرون بل هي تاء جماعة المؤنث لكنهم خففوة بالفتح قال الأزهري من كسر التاء في موضع النصب وجعلها جمع عرقة فقد اخطأ [1]. وإن هذا الذي ذكرته يدل على أهمية الالتفات إلى الشروحات اللغوية والأدبية للأمثال، ولكن المؤلف كما يبدو قد اهتم بالجمع والتصنيف والإحاطة والبحث عن الشواذ في مصادر الامثال من دون الاهتمام بالأمثال ودراستها ونشأتها وعوامل تطويرها وضروبها وهو لم يتجاوز في ذلك جمع الشعر والحديث ولكنا لا ننكر هذا الجهد العظيم الذي بذله المؤلف في الترتيب والتصنيف.

4. لقد استخدم المؤلف أفضل طريقة في ترتيب الأمثال وهي الترتيب على حروف المعجم حتى يسهل الوصول إليها، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه، ولم يجعل (ألف التعريف) من ضمن الكلمة الأولى في المثل، بل ترتيب الأمثال وكأنها غير موجودة أصلاً، وكذلك فعل مع ألف الوصل والقطع والاستفهام، ويعد هذا الترتيب من أسهل وأفضل الطرق في تصنيف الأمثال، حيث يمكن للباحث أن يهتدي إليها من دون عناء، وهناك طرق متعددة في تصنيف الأمثال منها الترتيب التاريخي والموضوعي أي حسب الموضوع...الخ، ولكن هناك أمر لابد أن نشير إليه لدى المؤلف هو اهتمامه بالحرف الأول الأصلي من دون الثاني والثالث كأن يقدم كلمة (عند) على (عبد) و(عارف) وهذا مما يؤدي إلى العناء في البحث عن بعض الأمثال ولا أقول أن ذلك يؤثر في قيمة الكتاب وجلاله فالرجل قد بذل من الجهد ما يحمد عليه.

5. ونأتي هنا على أمر مهم يذكره الميداني في توضيح الأمثال وهو القصص الغريبة التي تتمتع بملامح أسطورية قديمة من دون الإشارة إلى ذلك، تأمل تعقيبه على هذا المثل: (إنما خدش الخدوش انوش) الخدش الأثر وانوش هو ابن شيت ابن ادم ﷺ أي أنه أول من كتب وأثر بالخط في المكتوب، ويضرب فيما قدم عهده [2] فهو هنا ينقل من مصدر تاريخي لم يشر إليه للأسف، ثم من قال إن (أنوش) هو أول من كتب على الحجر وهل كانت الكتابة معروفة آنذاك، أن هذا في ظني ضرب من

(1) م. ن: 66/1.
(2) مجمع الامثال: 21/1.

الخيال البعيد المبني على الخرافة الشعبية وهو أبعد ما يكون عن البحث الواقعي.

إن المثل القائل: (إحدى محظيات لقمان) فيه قصة طويلة عن لقمان الجاهلي ومغامراته الغرامية، وكذلك المثل القائل: (اعز من الزباء) وهي امرأة من العماليق وأصلها من الروم وكانت ملكة الحيرة تغزو الجيوش، وهي التي غزت ماردا والابلق وهما حصنان كانا للسموأل بن عاديا اليهودي وكان ماردا مبنياً من حجارة سود والأبلق من حجارة سود وبيض فاستصعبا عليها فقيل تمرد مارد وعز الابلق فذهبت مثلاً [1] أن مثل هذه القصص وغيرها تدل دلالة واضحة على أصلها الخرافي، وقد اختلفت آراء الأدباء حول القصص التي وردت مع الامثال بشكل عام والتي تميزت بطابع المبالغة والخيال، ومن اجل أن نتعرف على مدى صحة هذه القصص لابد من الإشارة إلى إن مجموعة من الباحثين يرون إن هذه القصص إنما أوجدها الشراح فيما بعد وأنا اتفق معهم في ذلك ومن هؤلاء الدكتور شوقي ضيف بعد أن تكلم عن توزيع الأمثال بحسب الحروف الهجائية حيث يقول "ثم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون أحياناً حوادثها معتمدين غالباً على الظن والتخمين" [2] ويقول في كتاب آخر " وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلي بعامة فنحن لا نتخذ منها صوراً للنثر الجاهلي وإن اختلجت بروحه وطبيعته وحيوته لنفس السبب الذي ذكرناه وهو تأخر تدوينها "[3] ويوافقه في هذا الرأي الدكتور عبد المجيد عابدين حيث يقول: كان الناس ينطقون بكثير من الأمثال بصورتها الموجزة يفهمونها جملة لا تفصيلاً وتجرى على ألسنتهم سهلة طيعة سريعة ومع ذلك كان هناك فئة من الرواة يتعقبون أصول هذه الأمثال ويرون إن ذلك من كمال صنعتهم ومن واجبات حرفهم وفي هذا المجال كان الاجتهاد في تفسير الأمثال يلعب دوراً كبيراً في أقوال الرواة "[4] ويورد الدكتور عابدين ثلاث قصص ليؤكد بها مدى التحريف والاجتهاد فيها وهي: (قصة الزباء)، (خرافة الحية) و(الفأس) في أثناء تعقيبه على هذه القصص يقول "وما يفسر لنا بعض الحالات التي ينشأ فيها المثل الموجز من القصة وذلك حيث تكون القصة هي الأصل والمثل هو الفرع ولكن الوضع ليس كذلك دائماً في نشأة الأمثال التي تتضمن في قصص"[5] فلا شك أن طائفة كبيرة من الأمثال كانت هي الأصل ولفقت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها وكثيراً من الأمثال الموجزة التي يتمثل بها الناس في مناسباتهم المختلفة، "كانت تنتهي إلى الأجيال المتأخرة مقطوعة عن أصولها وهذا أمر لا نزال نلاحظه في أمثالنا

---

(1) مجمع الامثال: 504/1.
(2) الفن ومذاهبه في النثر: 21.
(3) العصر الجاهلي: 404.
(4) الأمثال في النثر العربي القديم: 37.
(5) م. ن: 38- 51.

الدراجة اليوم ينطق بها لساننا في المناسبات ونفهم مغزاها بالجملة [1] فالقصص التي وردت في مجمع الأمثال تندرج في معظمها تحت ما ذكرناه من أقوال الباحثين لأنها لم تخرج عن طبيعة ما أشرنا إليه من استخدام الأسطورة والخيال البعيد، وهي كما يبدو جاءت متخلفة عن الخيال في الحكايات الشعبية والقصص الموروثة مثل ألف ليلة وليلة وغيرها.

دراسة نقدية لطائفة من الأمثال

لا يعدم الباحث أن يجد في (مجمع الأمثال) اختلاطاً وتداخلاً بين الأمثال من حيث زمنها أو تاريخ تأليفها، وقد حاولت قدر الإمكان أن أقسم الأمثال إلى عدة مجاميع حسب أزمانها أو مواقعها الجغرافية، وقد بدأت أولاً بدراسة الأمثال العربية القديمة التي تمثل الحياة البدوية والحضرية بنوعيها من حيث تعبيرها عن بيئتها وأسلوبها وبنائها الفني، ثم الأمثال الإسلامية، وبعدها أمثال المولدين لأن المؤلف افرد لها مكاناً خاصاً وجعلها في خاتمة كل باب.

وسأبدأ أولاً بجملة امثال تعبر عن الحياة العربية بجانبها البدوي والحضري ورؤاها المتعددة الاجتماعية... الاقتصادية... الفكرية... وغيرها فقد كانت هناك الحياة البدوية بكل قساوتها والتي كان يسودها الصراع الدائم المستمر من أجل البقاء: هذه الحياة التي كانت تقوم على السلب والنهب والقتل والغارات فقلما كان البدوي ينعم بحياة هادئة آمنة ومن أجل هذا فقد نشبت الحروب والمناظرات والمفاخر التي كانت تعقد في أسواقهم، كل هذه العوامل أثر في البدوي من الناحية الفكرية والنفسية فجعلته في صراع دائم في سبيل تحقيق وسيلة العيش.

قالت العرب: " (كمجير أم عامر) كان من حديثه أن قوماً خرجوا إلى الصيد في يوم حار فإنهم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر وهي الضبع فطردوها وتبعتهم حتى ألجؤوها إلى خباء إعرابي فاقتحمته فخرج إليهم الاعرابي وقال ما شأنكم قالوا صيدنا وطريدتنا فقال كلا والذي نفسي بيده لا تصلون ما ثبت قائم سيفي بيدي قيل فرجعوا وتركوه وقام إلى لقحة فحلبها وماء فقرب منها فأقبلت تلغ مرة في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت فبينما الإعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وتركته" [2]. وقال العرب: (كل الصيد في جوف الفرا) قال ابن السكيت الفرا الحمار الوحشي قالوا وأصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين فاصطاد احدهم أرنبا والآخر ظبياً والثالث حماراً فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالا وتطاولا عليه فقال الثالث كل الصيد في جوف الفرا أي هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عند كما وذلك إنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي وتألف النبي ﷺ أبا سفيان بهذا القول حين استأذن على النبي ﷺ

---

(1) م. ن: 36.
(2) مجمع الامثال: 90/2.

فحجب قليلاً ثم إذن له فقال النبي يا أبا سفيان انت كما قيل كل الصيد في جوف الفرا [1] وقد قالت العرب (في بيته يؤتى الحكم) هذا مما زعمت عن السن البهائم قالوا: أن الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فاكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب: يا أبا الحسل فقال: (سميعا دعوت) قالت أتيناك نختصم إليك قال (عادلا حكمتما) قالت فأخرج إلينا قال (في بيته يؤتى الحكم) قالت: أني وجدت ثمرة قال (حلوة فكليها) قالت: فاختلسها الثعلب، قال: (لنفسه بغى الخير) قالت: فلطمته قال: (بحقك اخذت) قالت فلطمني قال: حر انتصر قالت: فاقضي بيننا قال قد قضيت فذهبت اقواله كلها امثالا [2] وقالت العرب: (بلغ السيل الزبى) هي جمع زبية وهي حفرة تحفر للاسد إذا ارادوا صيده واصلها الزبية لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان جارفا مجحفاً يضرب لما تجاوز حده[3]. نلاحظ من خلال تأملنا للأمثال التي سبق ذكرها أنها تمثل جانباً مهماً من جوانب حياة الإنسان العربي في صحرائه المترامية الأطراف وهو (الصيد) ونرى البدوي يصف وصفاً دقيقاً ما يلاقيه من مخاطر في أثناء رحلته هذه وكذلك طرق الانتقام منها إذا هي آذته ثم نرى فراسة البدوي وحيله في صيد هذه الحيوانات هناك أيضاً سرد البدوي لقصص الحيوان ومحاكاة هذه القصص وتمثله بها ولو أن بعض هذه القصص تمتاز بطابع الاسطورة وعدم الاطمئنان كما أشرنا سابقاً، لقد تمثل بها النبي ﷺ كما رأينا بقوله (كل الصيد في جوف الفرا) وهذا يثبت قدم هذا المثل وتداوله قبل الإسلام. وهناك جانب آخر من جوانب حياة البدوي في شخصيته وخلقه وهو الوفاء وهذا من أهم مميزات البدوي التي كان يفخر بها ويعتز وكان شديد الوفاء لصديقة وأهله وقومه وجاره وقد وردت أمثال كثيرة في الوفاء وغيره من الصفات الحسنة، فقد قالت العرب (نجز حر ما وعد) فذهبت مثلاً، يقال: نجز الوعد ينجز وقال الأزهري نجز الوعد وأنجزته أنا وكذلك نجزت به، وإنما قال (حر) ولم يقل (الحر) لأنه حذر أن يسمي نفسه حرّاً فكان ذلك تمدحاً، قال المفضل: أول من قال ذلك الحرث بن عمر وآكل المرار الكندي لصخر بن نهشل بن دارم وذلك أن الحرث قال لصخر هل أدلك عن غنيمة على أن لي خمسها، فقال صخر: نعم، فدله على ناس من اليمن فأغار عليهم بقومه فظفروا وغنمت، فلما انصرفوا قال له الحرث (نجز حرٌ ما وعد) فأرسلها مثلاً [4]، ومن الذين يضرب فيهم المثل بالوفاء في الجاهلية الشاعر السموأل فقد قالت العرب: (أوفى من السموأل)[5] وقصته معروفة فلم نذكرها هنا لطولها ولعدم تناسبها مع حجم البحث، وقالت العرب: (أوفى من الحرث بن عباد) يقال إنه أسر عدي بن ربيعة في

---

(1) م. ن: 82/2.
(2) م. ن: 18/2.
(3) مجمع الامثال: 96/1.
(4) م. ن: 295/2.
(5) ينظر مجمع الامثال: 236/2.

يوم فضه ولم يعرفه فقال له دلني على عدي بن ربيعة فقال له إن أنا دللتك على عدي اتؤمنني قال نعم قال: فليضمن ذلك عليك عوف بن ملحم فأمره الحرث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحرث إذا دله على عدي فقال عدي أنا عدي فخلاه وقال الحرث في ذلك: لهف نفسي على عدي وقد اشعب للموت واحتوته اليدان [1] وقال العرب: (أينما اوجه الق سعداً) كان الاخبط بن قريع سيد قومه فرأى منهم جفوة فرحل عنهم إلى آخرين فرآهم يصنعون بساداتهم مثل ذلك فقال هذا القول، ويروى في (كل واد سعد بن زيد)[2] وقالت العرب: (اعدى من السليك) وفيه قصة طويلة [3] وقالت العرب: (تركته تغنيه الجرادتان) يضرب لمن كان لاهياً في نعمة ودعة والجرادتان قينتا معاوية بن بكر احد العماليق وإن عادا لمّا كذبوا هوداً عليه السلام توالت عليهم: ثلاث سنوات لم يروا فيها مطراً [4] وفيه قصة طويلة وقالت العرب: (إن غداً لناظره قريب) وفيه قصة طويلة يدل على الوفاء والتزام العربي بكلمته ووعده والقصة حدثت في زمن النعمان وفي يوم بؤسه [5] وقالت العرب: (حمله على قرن اعفر) أي على مركب وعر [6] إن هذه المجموعة من الأمثال وغيرها التي تعبر عن الجانب النفسي وهي في مجموعها إنما تمثل جوانب مختلفة من حياة البدوي المتعددة في خلقه ومجتمعه وبين الطبيعة التي كانت تقسو عليه في غالب الأحيان فلقد كانت هذه الأمثال خير سجل لمفاخرهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والأدبية. وكان هناك تصوير دقيق لمواقف البطولة والشجاعة والحرب والإغارة وفي إصلاح ذات البين بين أفراد القبيلة الواحدة والمجتمع بشكل عام وكانت تصويراً لحياتهم التي كانت تعتمد على التنقل حيث مواطن الكلأ والماء والحياة والرعي وحياة الصيد كانت خير مصور لهذا الجانب من حياة البدوي ولاسيما في الكرم والوفاء.

وقد كان في هذه الأمثال وصف دقيق لأحوال القبيلة العربية وكان فيها تسجيل لبعض النوادر والطرائف التي كانت مادة النوادر والطرائف التي لاشك أنها كانت مادة لسمرهم في مجالسهم وأسواقهم، يقول الدكتور عبد المجيد عابدين في هذا الشأن، وقد وردت في هذه القصص إشارات تدل على إن المناذرة كانوا يجلبون إلى مجالسهم أفرادا من العرب مشهورين بالظرف والتفكه فيسمعون منهم كثيراً من المضاحك والنوادر ومن هذه المضاحك ما ذهب في العرب امثالاً فكان ضبة العيار بن عبد الله كان يقول الشعر ويضحك الملك النعمان فيعجبه[7] وقد شغف العرب بالسمر كما شغف سائر الأمم فإذا اقبل الليل اجتمعوا للسمر وظلوا في نشوة الحديث

---

(1) م. ن: 340/2.
(2) م. ن: 55/1.
(3) ينظر: م. ن: 508/1.
(4) م. ن: 138/2.
(5) م. ن: 74/1.
(6) مجمع الامثال: 222/1.
(7) الأمثال في النثر العربي القديم: 53.

حتى (تزقو الديكة) ايذانا بالصبح فينصرفوا على مضض لأنها تؤذن بتفريق شملهم وصرفهم عن لذتهم إلى عمل النهار الشاق ويضربون بها المثل في الثقالة فيقولون: (أثقل من جمل الزواقي) قال محمد بن قدامة سألت الفراء عنها فلم يعرفها فقال جليس له إن العرب كانت تسمر بالليل فإذا زقت الديكة استقلتها لأنها تؤذن بالصبح إذا زقت فاستحسن الفراء قوله [1] وكان حرصهم كبيراً على السمر في الليالي المقمرة فإذا جاء الشتاء انحرموا من تلك اللذة ضد رغبتهم ومن أمثالهم: (أضيع من قطر)[2]، ومن شأن العرب أن تبالغ في وصف الشيء حتى يذهب الخيال بهم إلى اختراع الأكاذيب وهي كثيرة عنهم وهذا من دواعي شيوع النكتة بينهم وكانت هي الفكاهة المفضلة في أمثالهم وأسمارهم.

وكذلك الأمثال على وزن افعل فيها المبالغة في التشبيه، والفكاهة فيها في الأغلب الأعم، بل إن المواقف والحوادث الفكاهية التي تقصها الأمثال هي سرد سريع مركز ينتهي بالنكتة مثال ذلك قولهم: (أعيى من باقل) وهو رجل من ربيعة بلغ من عيه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً فمر بقوم فقالوا له بكم اشتريت الظبي فمد يديه ودلع لسانه يريد احد عشر فشرد الظبي وكان تحت أبطه [3] يقول الدكتور عبد عبد المجيد عابدين في هذا الشأن: ولعل أكثر الأمثال القديمة التي تقصد الفكاهة تميل إلى الوصف الحسي والعملي فيصور مواقف وحوادث أو يشير إليها إشارة خاطفة وهي في تصويرها حسية لاصقة بالأرض لا تستهدف غرضا نقدياً ولا مغزى اجتماعياً وقلما كانت المواقف التي تصور حماقات الناس وعيوبهم في مفهومها الشعبي عند العرب ذات نزعة نقدية أو تأديبية واغلب الظن أن المغزى (أو المضرب) قد الحق بالامثال أو بكثير منها في عصور متأخرة عن نشأة الامثال نفسها [4] ونقرأ المثل الآتي: (جاء كخاصي العير) يضرب لمن جاء مستحيياً ويقال يضرب يضرب لمن جاء عريانا ما معه شيء ووجه الاستحياء يعلوه لأن خاصي العير يطرق رأسه عند الخصاء... [5] وهذا المثل كما ترى فيه صورة جميلة تتمثل شخصاً شخصاً فيه طبيعة الحياء ولعله صنع جرماً شنيعاً انكره عليه الناس وانكره هو على نفسه فأصابه استحياء شديد فهو مشغول بما صنع، يود ان يتوارى من الناس فمثله كمثل خاصي العير وهو يطرق رأسه عند الخصاء يتأمل كيفية ما صنع هذا عمل قبيح عند سواد الناس ويستحي من صنعه عليه القوم ونسمع قولهم الذي ذهب مثلاً: (دب قمله) مثل يضرب للإنسان إذا سمن وحسن حاله [6] فاذا بهذه اللمحة الخفيفة

---

(1) مجمع الأمثال: 164/1.
(2) م. ن.
(3) م. ن: 504/1.
(4) الامثال في النثر العربي القديم: 119.
(5) مجمع الامثال: 182/1.
(6) م. ن: 378/1.

تتكثف أمام اعيننا عن مشهد رجل غني هبطت عليه النعمة بعد شدة وفاقه، وإذا به يزداد سمناً في الجسم يترهل ويتهدل وغذا بالخير الكثير يحدق به من كل جهة وإذا ببيته يغص بالزائرين من الناس ممن يخدعهم بريق النقود والجاه الاجوف.

إن كل صورة من الصور السابقة تحمل موقفاً فيه عنصر التتابع الزمني يرتقي من خلال حركات الحوادث والمواقف وفي كل صورة منها لفظ يعين على هذا الترقي الزمني كالدبيب والمجيء وغيرها وهذه بمثابة خطوط زاهية توضح ملامح الصور وتبث بها الروعة، وكانت منسابة متتابعة جميلة ومن الامثال ما يصور حركات قصيرة خاطفة يدور فيها الزمن في نقطة معينة ويخطو خطوة واحدة، فمن ذلك قولهم: (برح الخفاء) أي زال، من قولهم (ما برح) ويضرب في الكريم يخدمه من دونه[1] وقد يدخل شيء من التشابه الزمني في مدلول الصورة نحو قولهم (لطمة لطم المنتقش) إذا لطمه لطماً متتابعاً [2] يريد أنه لطمه مرات كما يصنع البعير إذا شاكته شوكة لا يزال يضرب يده بالأرض بهدف انتقاشها وفي لفظة (المنتقش) وحدها صورة موحية مليئة بالحركة والروعة تترقى خلالها حركات متتابعة.

من الواضح البين أن مادة الخيال في تلك الصور مستمدة من الحياة العربية من حيوان ونبات وحوادث ومشاهد ووسائل العيش في بيئاتهم غير أن مادة الخيال هذه بمقاييس الأذواق المتحضرة ربما لا تروق في بعض الاحيان ذلك أن كثيراً من عناصر هذه المادة يفتقر إلى صقل وتهذيب، فمن الناحية الخلقية قد ترفض هذه العناصر لما فيها من افحاش وخشونة أو بعد عن المألوف في حياتنا، كقولهم: (جاء كخاصي العير) و(بال حمار فاستبال احمرة) ومع هذا فأن الصور المجازية بحد ذاتها واضحة لا غبار عليها فنحن نفرق في حكمنا على هذه الصورة بين الجانب الاجتماعي والجانب الفني إن صح التعبير، ولو أردنا أن نحدد بعض الخصائص الفنية لهذه الامثال نلاحظ ما يلي:

1- الايجاز الشديد في ظاهرة تكاد تكون عامة في مجمل الأمثال.
2- اختيار الالفاظ ذات الدلالة القوية المعبرة بشكل صادق ودقيق ونقصد بالصدق هنا الصدق الشعوري الفني الواقعي.
3- وجود بعض الالفاظ الغريبة احياناً مما حدا بمؤلف مجمع الامثال أن يشرح الكلمات من الناحية اللغوية لفتح الغلق كما يقول.
4- التناغم الموسيقي حيث نحس أن للمثل وقعاً خاصاً يجبرك على حفظه والتمتع به.
5- هذا مع ملاحظاتنا لذلك الارتباط الوثيق بين المثل والقصة الاسطورية التي كانت مادة طريفة للبدو يسمرون بها في صحرائهم وقد ناقشناها فيما سبق.

---

(1) مجمع الامثال: 1/100- 101.
(2) م. ن: 2/134.

قال ابراهيم النظام يجتمع في المثل اربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكتابة فهو نهاية البلاغة [1]، ونلاحظ أنه في رأيه هذا ينطلق من دراسته للأمثال القديمة وربما الامثال التي وضعت من لدن اناس متمكنين من صياغة وصناعة الالفاظ وتنسيقها ورأيه بشكل عام أشبه بتلخيص دقيق لأسلوب المثل.

أما الامثال التي تصور الجانب الحضري لحياة العربي فهي كثيرة في مجمع الامثال وهذا في اعتقادي أحد ميزات منهجه حيث يختلف عن المؤلفين الآخرين ممن جمعوا الأمثال القديمة حيث اقتصروا على الامثال التي تصور حياة البدوي الصرف مع ايراد قصص ومناسبات اكثرها يمتاز بطابع الخيال ومن أمثلة ذلك ما ورد في كتاب المفضل الضبي (امثال العرب). والامثال الحضرية تصور الحياة التي عاش أهلها في بيئة تعتمد على الزراعة والتجارة غالباً وعلى الرعي قليلاً، وكان لهم فوق ذلك المركز الديني الذي كان تحت سيادة قريش في مكة، وكانت لهم الاسواق والمواسم التي كانت تفد إليها القبائل المجاورة للتجارة احياناً، ولتأدية الشعائر الدينية أحياناً أخرى وللمفاخرة والمنافرة فيما بينها، وفي بعض الأحيان تصور ذلك الجانب من الحياة العربية الذي تعيشه المجتمعات القديمة وتصوره أحسن تصوير، ولو أخذنا المثل القائل: (حتفها تحمل ضان بأظلافها) يضرب لمن يوقع نفسه في هلكه واصله أن رجلاً وجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها فضربت بأظلافها الأرض فظهر سكين فذبحها به وهذا المثل لحديث بن حسان الشيباني تمثل به بين يدي النبي ﷺ لقيلة التميميه وكان حديث قد حملها إلى النبي... [2].

والمثل القائل: (من يرد الفرات عن دراجه) ويروى عن ادراجه وهي جمع درج أي عن وجهه الذي توجه إليه.. يعني أن الأمر خرج من يده وان الناس عزموا على الخروج من الكوفة فهو لا يقدر أن يردهم من فورهم هذا [3] وقولهم (النبع يقرع بعضه بعضاً) النبع من شجر الجبل وهو من اكرم العيدان ويضرب للمتكافئين في الدهاء والمكر [4] وقولهم (إذا زل العالم زل بزلته عالم) ونرى في هذا المثل استخدام كلمة (العلم) وما لها من اتصال بالحضارة والاستقرار وكذلك أثر سلوك الادباء الفكري على الآخرين.

أوردنا فيما تقدم بعض الامثال التي عكست حياة العرب الحضرية سواء أكانت في الجاهلية أم في الإسلام، وصورتها لنا من زوايا معينة ومتعددة من حيث العلاقات الاجتماعية والفكرية والنشاط الاقتصادي، وقد انتشرت هذه الامثال انتشاراً واسعاً ووجود الكثير ممن تمثلوا بها، ولعل السر في هذا الشيوع والانتشار يعود إلى ايجازها المكثف الذي ساعد على سرعة حفظها، فقد تناقلتها الألسن جيلاً بعد جيل

---

(1) ينظر: الفن ومذاهبه: 22.
(2) مجمع الأمثال: 201/1.
(3) ينظر: م. ن: 135/1.
(4) ينظر: م. ن: 398/2.

وقد تمثل الرسول ببعض تلك الأمثال، فإذا القينا نظرة عامة على كل الأمثال التي أوردناها نجد أن خطوط عامة تربطها وذلك ينطبق على الأمثال المسهبة الطويلة منها، مثل قصص لقمان الجاهلي أو تلك التي تتحدث على السن البهائم مثل حكاية الأرنب والضب التي ذكرناها، وكذلك تلك الامثال التي تتركب من جملة أو جملتين اي قلة اللفظ مع اداء المعنى كاملاً، ونجد أهم الملاحظ أو الخصائص الآتية:

1- الإيجاز والبعد عن غموض التركيب والتعقيد، فالجمل متساوية إلى حد بعيد مع كثرة الفواصل وكثرة حروف العطف الخفيفة كالواو، والفاء، وهذه الظاهرة نجدها في معظم الامثال التي اوردها الميداني.
2- إذا انتقلنا إلى مجموعة الامثال الأخرى التي تتكون من جملة أو جملتين أو أكثر قليلاً فأننا نلاحظ أيضاً هذا التتبع وهذا الانتقال من عبارة إلى أخرى بأسلوب سلس خال من كل غموض أو تعقيد ونجد هذا في كثير من الامثال نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (اليوم خمر وغداً أمر) و(الايناس قبل الابساس) و(رب قول أشد من صول)[1] ونلاحظ اسلوب السجع في بعض هذه الامثال، ويبدو أن استخدامه نابع من الاسلوب الموسيقي الذي يجعلها اسهل حفظاً.
3- هناك كثير من الامثال تبدأ بأداة من أدوات الشرط وهي جملة موجزة أيضاً مثل قولهم (أينما أوجه ألق سعداً) و(إذا نزا بك الشر فاقعد به) و(إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر) و(إذا ضربت فأوجع وإذا زجرت فأسمع).
4- وهناك كثير من الامثال تعتمد على التصوير والتشبيه فقد صورت أحوال الناس تصويراً جميلاً وموحياً في الوقت نفسه، كقولهم (كم مجر في الخلاء يسر)[2] فهذا يعطينا صورة الرجل الساذج المغرور المعجب بفضائل غيره فمثله كمثل من يجري فرسه بالمكان الخالي الذي لا سباق فيه فيسر بما يرى من سرعة ولعله اذا قرن بغيره يتبين نقصه.

وقولهم (عثيثة تفرم جلداً املساً)[3] للرجل المهين القدر صغير الشأن يتطاول على آخر عظيم شريف أن يؤثر فيه فلا يقدر عليه فهو يشبه عثيثة تفرم جلداً أملس عثة صغيرة حقيرة تأكل جلداً ناعماً، فلا تؤثر فيه كثير ولا تنال منه إلا القليل، وفي هذا المثل خطأ نحوي تجاوزه المثل والأصح أن نقول عثيثه تفرم جلداً أملس، لأن املس ممنوعة من الصرف، ولقد كانوا يعتمدون على الخيال في هذه الصور لكنها مستمده من الحياة العربية نفسها من حيوان ونبات ومشاهد ووسائل العيش التي ألفها العرب ببيئاتهم وقد أوردنا تعريفات القدماء التي تعد الايجاز ركناً من اركان المثل.

---

(1) ينظر مجمع الامثال: 382/2، 62، 302.
(2) م. ن: 81/2.
(3) م. ن: 489/2.

5- وهناك كثير من الامثال مبدوءة بجملة حالية ثم تستأنف بالواو ليكون ما بعدها جملاً أسمية أو فعلية مثل (أن الليل طويل وانت مقمر) وقولهم (انج ولا أظنك ناجياً).

ونتحدث الآن عن المثل الذي جاء على وزن (افعل من) الذي ختم الميداني به كل الابواب ويرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن هذا مثال من تلك الأمثال المصطنعة التي اقحمها الرواة وصناع الكلام على الامثال الاصلية، وسنرى أن معظم هذا النوع على كثرة وروده في مدونات الامثال مستحدث أضافه الرواة إلى المثل القديم وهو في كثير من الاحيان لم يظفر في صورته الشكلية على الاقل بالالفة الشعبية [1]، ونحن على يقين أن العرب كانوا يغرمون في المبالغة لبيان عظمة الاشياء مما يجود به خيالهم ويصفون بشكل مبالغ فيه، فقالوا (ابصر من عقاب ملاع) وملاع اسم هضبه (وقيل) ملاع اسم للصحراء وقالوا ذلك لأن عقاب الصحراء ابصر واسرع من عقاب الجبال [2].

وقالوا (ابلغ من قس) وهو قس بن ساعدة وكان من حكماء العرب[3] وكان من بلغائهم وقولهم (اذل من بساط) يعنون هذا الذي يبسط ويفرش فيطؤه أحد [4]، فهم لم يقتنعوا أن يصفوا المشبه به بقوة بصر العقاب ولا ببلاغة قس بن ساعده بل جعلوه ارفع شأناً وأعظم قدراً حتى يعظموا في التشبيه وأنهم لم يرضوا أن يجعلوا المشبه به بذلة البساط المفروش الذي يتساوى مع الارض بل جعلوه أقل شاناً وأخس محلاً. أن مثل هذه الامثال تمتاز بالمبالغة بالتشبيهات كما قلنا وبالصنعة النحوية والبلاغية وتشتمل على أمور من ضمن البيئة العربية الجاهلية كذلك البساط والعقاب وغيرها.. ولنقل أن هذه الامثال من صنع الرواة كما يقول الدكتور عابدين، فهي قد عبرت عن بيئة عربية خالصة وأخذت طريقها في المد الشعبي العربي على مر الاجيال وقد تكون أكثرها منتحله ولكنا كباحثين من المفروض أن نصل إلى ذلك عن طريق الاستقصاء والاستقراء والتتبع بالرغم من أن بعضها يمكن تمييزه من خلال روحه ومعناه لأنه يدل على شخصيات اسلامية متأخرة أو غير ذلك، يقول الدكتور عبد المجيد عابدين "ومن ثم جاز لنا أن نقول أن كثيراً مما ورد من الامثال على افعل هو عبارات منتحلة على المثل القديم انتحالاً وليست منه في قليل أو كثير وأن الأدباء الرواة والعلماء قد وجدوا هذه الصيغة قالباً سهلاً ميسوراً يصبون فيه إلى تشبيه يجود به خيالهم أو معلومات قد عرفوها ولم تكن هذه الامثال حية الاستعمال في تلك العصور المبكرة"[5].

---

(1) الأمثال في النثر العربي القديم: 89.
(2) مجمع الامثال: 221/1.
(3) م. ن: 217/2.
(4) م. ن: 297/1.
(5) الأمثال في النثر العربي القديم: 97.

قالوا (اصدق من قطاة) لأن لها صوتاً واحداً لا تغيره فصوتها حكايه لاسمها تقول قطاقطا [1]، قالوا (أكمن من جدجد) وهو ضرب من الخنفساء يصوت في الصحارى.. فإذا طلبه الطالب لم يره [2]، وقالوا (ألين من الزبد ومن خرنق) والخرنق ولد الارنب [3] و(امرق من سهم) أن هذه الامثال التي ذكرتها لا تكاد تخرج عن طبيعة البيئة العربية الصرفة رغم أدعاء أكثر الباحثين على اصطناع هذه الامثال فيما بعد.

ونعرج الآن على طائفة جديدة من الامثال التي اوردها الميداني في كتابه، تلك التي ترسم خطاً ثالثاً في امثالنا العربية وهي (امثال المولدين)، وقد استعمل لفظ (المولد) بعد امتداد رقعة الإسلام والفتوحات واختلاط العرب بكثير من العناصر الأجنبية التي ارتبطت مع العرب برابطة الدين، وقد ظهرت هذه الأمثال عند ضعف النفوذ العربي بعد نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ولكننا لا نستطيع أن نعرف الأرهاصات الأولى لمثل هذه الأمثال.

وإذا تصفحنا أمثال الميداني المولدة هذه اكتشفنا حقيقة مهمة هي أن معظم الأمثال العربية القديمة والكتابية أيضاً قد اختفت من الاستعمال، وأن أمثالاً جديدة حلت محلها فأول ما نلاحظه انقطاع الصلة بين المولدين الذين نشأوا في بيئات غير عربية وبين كثير من الحوادث والعادات والشخصيات التي تشير إليها أمثال الجاهلية وصدر الإسلام [4]، فهم بحاجة إذن إلى أمثال تعبر عن مشاعرهم وأخلاقهم وحياتهم وبيئاتهم، وهذا أمر طبيعي لأنهم لا يعرفون من التاريخ العربي ومن عادات العرب إلا القليل فكيف به يستذوق مثلاً عربياً قيل عن الصحراء وحيوانها وهو لم يعرفها أو يرها، ولأي شيء وبأي اعتبار من النبطي أو الفارسي أن يتبنى أمثالاً لا يجد في حوادثها وشخصياتها ما يعبر عن نزعة خاصة أو ظاهرة تتعلق بحياة قومه وبيئته [5].

فلا بد أن تظهر أمثال جديدة أقرب إلى بيئتهم في مادتها وصورتها وبالضرورة تكون هذه الأمثال قريبة إلى نفوسهم بالنسبة إلى الأمثال العربية، وقد حاول الميداني أن يجمع عدداً لا بأس به في كتابه مجمع الأمثال، حيث بلغ عدد الأمثال المولدة حسب احصائي (905) أمثال وإذا فاتني شيء فهي لا تتجاوز الألف أبداً.

ولنأخذ هذه المجموعة من الأمثال لدراستها، قيل (البصر بالزبون تجارة) يضرب في المعرفة بالإنسان غيره [6]، ومن خلال هذا المثل نحس بتغير المفاهيم

---

(1) مجمع الامثال: 224/2.
(2) م. ن: 217/2.
(3) مجمع الامثال: 201/2.
(4) ينظر: الأمثال في النثر العربي القديم: 278.
(5) مجمع الامثال: 279.
(6) م. ن: 128/1.

الاجتماعية حيث نجد أن التعامل مع الناس يسوده الريبة والشك وفيه ألفاظ تجارية مثل الزبون والتجارة، فهي تعبر عن بيئة جديدة ليس للعربي سابق عهد بها، وقالوا (الصناعة في الكف أمان من الفقر) [1]، نلاحظ أن الصناعة التي كان يأنف منها العربي ويسميها (مهنة) وهي في اشتقاقها البعيد أقرب إلى المهانة والحقارة تصبح في مفهوم غير العرب أمان من الفقر وتجارة لا تبور وهذا من الأمور التي خلقتها المدنية والتطور وإلا فالعرب لم يشتغلوا بالصناعة إلا في عصور متأخرة عن العصر الجاهلي حيث كان الأعاجم هم الصناع آنذاك.

وقولهم: (إذا افتقر اليهودي نظر في حسابه العتيق)[2]، نجد فيه أن الألفاظ الحضرية وما فيها من اهتمامات تجارية فاليهودي هنا يملك سجلات متعددة منها ما أكل الدهر عليها وشرب وهو مشغول بالبحث فيها عن خطأ أو سهو عسى أن يجد شيئاً يقتات منه بعد أن أصابه الفقر بنابه، ويظهر المثل أيضاً طبيعة اليهودي في الإسراف والجشع في حب المال وكل ما هو مادي واهتمامه بالتجارة كما هو عليه.

ونتأمل المثل القائل (أن للحيطان آذاناً) فنرى أن روح الشك والارتياب قد عمت في حياة المتحضر حيث انتشرت روح النفاق والزيف في العلاقات الاجتماعية وسيطرت عليها اللامباشرة ونحس أيضاً أن هذا الحذر المشوب بالخوف الذي جسده المثل يتم عن وجود السلطة التي تحاسب الناس وتردعهم حينما يتحدثون أو ينقدون السلطان الحاكم، وقولهم (إذا عاب البزاز ثوباً فأعلم أنه من حاجته) [3]، فالإحساس بحياة التجارة والعمل ما زالت تطغى في هذا المثل فالبزاز يمثل مهنة حديثة بعيدة عن حياة العرب البدوية ويؤكد المثل الاستغلال والغش الناجمان عن تعقد العلاقات وتوسع المجتمع وظهور المدنية والاختلاط الحضاري.

وقولهم (زاد في الطنبور نغمة) والطنبور آلة موسيقية تشبه الناي ويخيل إلى أن الكلمة ليست عربية ومما يدل على ذلك أن المثل مولد، وأنه يعبر عن حياة المدن وما فيها من تضخيم لبعض الاعمال البسيطة فالمثل يضرب للأشاعة الضخمة واضافة ما لم يوجد أصلاً. وقولهم (كن يهودياً تماماً وإلا فلا تلعب بالتوراة)[4]، و(لاتعلّم الشرطي التفحص ولا الزطي التلصلص)[5]، من خلال هذين المثلين يظهر يظهر التعبير عن البيئة من الناحيتين الدينية والدنيوية، فاليهودي هو المعني بها الذي يعرف كيف يقرأ التوراة ويستخرج منها ما يريد أو ما ينفعه من أفكار، والشرطي في المثل الثاني لفظة حضرية مدنية صريحة وهي مرتبطة بوجود الحكومة والسلطة وتعقد العلاقات الاجتماعية وظهور الجريمة بأنواعها، والزطّي

---

(1) م. ن: 431/1.
(2) م. ن: 91/1.
(3) مجمع الامثال: 90/2.
(4) م. ن: 91/1
(5) م. ن: 219/2.

كلمة اعجمية وهو الشخص الذي يضرب على آلة الزط الموسيقية، والمثل ينم عن أصله بشكل صريح.

إن هذه الأمثال وغيرها مرآة واضحة لدخول العناصر الجديدة واختلاطهم مع العرب من خلال ايمانهم بالدين الاسلامي حيث شدتهم وشائج الزواج والقرابة مع العرب وكذلك الصناعة والتجارة والأسواق، ولو أردنا أن نضع بعض الخصائص الفنية لهذه الامثال وجدنا ما يلي:

1- بساطة المعنى وابتعاده عن التعقيدات اللفظية.
2- ظهور روح الانسياب والاسترسال في الصياغة.
3- دخول الالفاظ الاعجمية والعامية المأخوذة من لغة الحياة اليومية.
4- تمتاز هذه الامثال بالوصف الحسي والتصوير الواقعي الدال على البيئة.
5- تتميز بتوازن العبارات وفيها الحث على التأديب والحذر.

وفي الختام نقول إن هذه الامثال كانت نتاجاً طبيعياً لمجتمع جديد فيه من العناصر والاجناس المتباينة وفيه العلاقات الجديدة التي ظهرت بظهور المدن وتوسع المجتمعات والاختلاط وطغيان الصناعة والتجارة والحكومة والسجن والجريمة، والامثال المولدة تتناول تجارب انسانية عامة تحفظ بين حناياها شيئاً من تراث الشعوب التي أوجدتها.